مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

namacenter

أوراق نماء

وعي الاختلاف ونبذ الخلاف

يوسف عكراش

وعي الاختلاف ونبذ الخلاف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

لقد قضت حكمة الله تعالى أن جعل الاختلاف قديمًا قدم الخلق، وهو سنة كونية أبدية، وطبيعة بشرية، فمن المستحيلات الثابتة جمع الناس على كلمة واحدة، قال الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.(٢) فسنة اختلاف الخلق دليل بالغ على كمال الخالق، ولولا سنة الاختلاف لاندثرت الخليقة، ولذلك أضحى اختلاف الناس بين مدرك واعٍ بهذه السنة الكونية، فهو مشرف على كمال العقل البشري الوعي في أبهى حلته في فهم سنة الاختلاف. وبين مقبل على قمم الجهل وأنواع البهيمية بأشد ما تكون عليه من الغباء بالإجرام بحق كل ذي رأي مختلف.

فالصنف الأول هو صورة للعلم والمعرفة والرقي في أبهى حللها، بحيث عرف الفرق بين الاختلاف والخلاف، وتأدب بآدابه وراعى ضوابطه، وأدرك مقاصده، كما أصل أسس الرد والإنكار عند تحقق الأسباب وتوفر الشروط وانتفاء الموانع.

وإن هذا الصنف الأخير الذي ترعرع في الجمود والانغلاق والانكماش وقصور في الفهم، ونشأ على التفرد والاستبداد بالرأي والفكر والنظر، والذي يغلق أبواب عقله على مرضه، بحيث يرى

(١)سورة هود، الآية ١١٨-١١٩.

(٢)سورة البقرة، الآية ٢٥١.

رأيه الرأي المنير القويم، وقوله هو القول الفصل الحكيم، فأنشأ الخلل إما بالنزاع أو الشقاق في أمور يسعها التغافر إما بالقبول أو الإعذار. ولكن هيهات هيهات فجدير بنا أن نقر بأن هذا الصنف شر بلية أريدت بنا، وشر خيبة سيقت لنا، ولا غرابة إن قلت هو السبب الأعظم لتخلفنا عن ركب الأمم، ولعل ذلك يرجع إلى عدة أسباب نورد أهمها وأظهرها في الواقع:

النزعة الفردية: وهي شعور الإنسان بالعلو والاستعلاء بذاته المعنوية المستقلة، بحيث يتولد لديه رغبة في التميز والتفرد ولو كان ذلك على حساب الهوى ولي أعناق المفاهيم، مما يدفعه إلى تكوين قناعات خاصة يعتقدها ابتداءً، ثم يستدل لإثباتها انتهاءً.

تفاوت الأفهام: فدرجة إعمال العقل والفكر والنظر في الأمور تختلف باختلاف الأشخاص، فما يستنبطه فلان لا يدركه الآخر، فتباين المدارك، واختلاف المهارات، وتنوع المعارف والتكوينات، يكون سببًا عظيمًا في نشأة الاختلاف واتساع رقعته.

تباين المقاصد: ويكون هذا الأخير نتيجة تدافع مصالح الناس وتباين المرامي، فيلزم من ذلك اختلاف السبل والطرق، وعليه يلزم من ذلك وجود الاختلاف واتساع رقعته. ولا عيب في ذلك ما دام الاختلاف يندرج تحت اللواء المحمود.

وبناءً على هذه الأدواء الثلاثة الظاهرة والباطنة فإننا نقدم العلاج الأمثل، والدواء المفعم في ثلاث جرعات لفهم الاختلاف ووعيه ونبذ الخلاف وتركه، وهي: جرعة ترك الهوى، وجرعة ترك تقليد الأعمى، وجرعة نبذ التعصب، وقبل أخذ هذه الجرعات لا بد من تهيء العقل والقلب، أولًا بالإقرار بهذا المرض إقرارًا باطنًا لا ظاهرًا، وإقرارًا عمليًّا لا قولًا نفسيًّا حتى نكون أصحاب فهم دقيق ورأي بديع، ثانيًا أن ندرب أنفسنا على أسمى معاني الإنسانية، وترويضها على ما يتميز به البشر في العلو أو الانحطاط. وقد أورد

الذهبي في سير أعلام النبلاء: «**أن يونسَ الصدفي قَالَ: مَا رَأَيتُ أَعْقَلَ منَ الشافعي، نَاظَرْتُهُ يَوْما في مَسْأَلة فَلَمْ نَتَفق، فَلَقيَني بَعْدَهَا وَأَخَذَ بيَدي، وَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى أَمَا يَسْتَقيمُ أَن نَكونَ إخْوَانا وَإنْ اخْتَلَفْنَا في مَسْأَلَة**». وحتى نستسيغ الدواء أيضًا ونتخلص من الداء، تعالوا معنا نضع قاعدة مشتركة ألا وهي: استيعاب أن الاختلاف ليس اعتداءً متعمدًا أو تعبيرًا عن قوة أعلى بل هو أمر أراده سبحانه ليؤدي وظيفته. ولا يتأتى هذا الفهم للخروج من هذه الأزمة الفكرية المتجذرة، لا بد من نبذ ثلاثة أمور رئيسية مما تقدم آنفًا، حيث تبيّن بالاستقراء والتتبع أن مرد جهل سنة الاختلاف وعدم وعيها، وإدراك جاذبيتها، وهجر آدابه، إلى:

الهوى: وهو ميل النفس إلى الصنم الخفي بذواتنا الذي لا يراه غيرنا، الذي نهوي إليه مكبرين مهللين كلما هممنا على اختلاف، دون الاستناد إلى المبادئ الفطرية، أو الدلائل العقلانية، أو التجارب العلمية، بل هو وضع الذات في كفة، والحكم على المخالف في كفة، وترجيح الذات ابتداءً.

تقليد الأعمى: وهو الظل الذي يستظل به القدوة أو الشيخ أو المذهب وما جرى مجراهم ودار في فلكهم، بحيث ينزل الناس منزلة العصمة ومقام العظمة، فكم مرة أمكننا فهم اختلاف وفض النزاع بإقناع أو اقتناع، لكن الركون إلى الأشخاص الزائفين جعل الاختلاف ينحرف عن مساره الصحيح ليسلك طريق إمعة، ويضع السدود بين طرفين بدلًا من الإعانة على المقاربة والالتحام.

التعصب: وهو تمركز حول الذات أو حول أشخاص الزائفين، والتعصب لهم وهجر الموضوعية، والرد الصريح لسنة الاختلاف، وتحجير العقل وإخراجه عن وظيفته الطبيعية في تناول القضايا الخلافية، ليصبح استيراده للمعرفة من قناة واحدة دون أدنى حرج، وهو من أبرز سمات وأسس هذه الأزمة الفكرية المتجذرة. من تأمل سنة الأخيار وسيرة العلماء الأبرار رأى رحابة صدرهم وعدم

تعصبهم لآرائهم، وخير ما نورد في هذا المقام ما نظمه بعضهم في الأئمة الأربعة رحمة اللّه عليهم أجمعين وقولهم في الحق إن جاء من المخالف:

قال أبو حنيفة الإمام *******لا ينبغي لمن له إسلام
أخذًا بأقوالي حتى تعرضا على******* الكتاب والحديث المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة *******قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ******* ومنه مردود سوى الرسول
والشافعي قال إن رأيتم ******* قولي مخالفا لما رويتم
من الحديث فاضربوا الجدار *******قولي المخالف الأخبار
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ******* ما قلته بل أصل ذلك اطلبوا

إن إدراك المعاني الحقيقية للهوى والتقليد والتعصب، ونبذها لسبيل موصل إلى إدراك أن الاختلاف ضرورة واقعة وأمر طبيعي بين الناس لتفاوت إدراكهم وفهمهم، وطرق استدلالهم، ولا يقع عليه البتة ذم ولا تنقيص ولا تفريق بقدر ما يقع على المسلكيات السيئة الناتجة عن عدم التخلق بآدابه، كالظلم والبغي والرد للحق وهضم للخصم.

وقد أشار ابن القيم -رحمه اللّه- في كلام قيم إلى أن المخالف إذا سلم قصده لا تضر مطيته حين قال: «**فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزيب، وكل من المختلفين قصده طاعة اللّه ورسول، لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية**». وكما آثَرَ الإمام مالك نفسه -رحمه اللّه- في موقف رفيع وقول بديع وإفساح المجال للمخالف واحترامه، وذاك حين أراد الخليفة العباسي حمل الناس على الموطأ -وهو كتاب مالك وخلاصته في الحديث والفقه- «**فَقَالَ لَا تَفْعَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنينَ**» معتبرًا ومقررًا مبدأ الاختلاف، وأن لكل عصر ومصر علماءه وآراءه دون أدنى محاولة لإشباع الذات، فَعَدَلَ الخليفة عن ذلك، فظهر أن الاختلاف سائغ وواقعٌ ما دام في الحدود والضوابط المشروعة، بل يكون ممدوحًا وهادفًا إذ هو مصدر من مصادر الإثراء الفكري، والغنى المعرفي، ودافعا لتلاقح الأفكار والآراء، ووسيلة للوصول إلى القرار الصائب.

وما مبدأ الشورى الذي قرره الإسلام إلا تشريع لهذا الاختلاف الرحيم قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[1] [آل عمران:١٥٩.] إذا نحن التزمنا بآدابه كالعذر بالجهل، والعذر بالاجتهاد، والرفق في التعامل، واللين في القول، ومراعاة المصالح والمفاسد عند الرد أو الإنكار.

وختامًا فإن قبول الاختلاف وفقهه، والتحلي بآدابه والتزام ضوابطه ضرورة لا محيد عنها أحب من أحب وكره من كره، وواجب ملزم لمن أراد استشراف المستقبل بحفظ وأمان، حيث إن فكر المخالف وآراءه منبع إلهام وصرح لنحت الأفكار وسبب عظيم من أسباب الرقي والازدهار، وإحياء لروح التسامح في الأمة ونبذ الكره والتباغض، وبث روح الأخوة والمودة بين المسلمين قاطبة. وإدراك أن الاختلاف وجهة مشروعة لكل من ولاها وجهه وجب استثمارها وتنميتها. أما تحجر الأذهان وصمم الآذان وإعجاب كل ذي رأي برأيه لم يبرز إلا الضعف والوهن والتشرذم، والواقع أعظم الشهـــــــــود.

كتبه الأستاذ: يوسف عكراش

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.